رحلة أبي الطيب
من مصر إلى الكوفة

للأستاذ أحمد رمزي

تتمة البحث

وكنت إذا يممت أرضا بعيدة سريت فكنت السرى والليل كاتمه

شعوران قد تملكا قلب أبي الطيب في رحلته ، وأعترف بأني أشاركه فيهما : شغفه بالبادية والتغني بمحاسنها ولياليها ، ومقته للظلم والطغيان ، فهو لا يذكر أيامه بمصر إلا مقرونة بالألم والحسرة ، ولا يمر بعقبة أو يخرج من أمر مدلهم ، إلا عد ذلك نصرا على كافور وظلمه وطغيانه ، ولا يترك مناسبة دون التغني بالبادية

إنك لا تشعر بشعور أبي الطيب إلا إذا عشت بالبادية ، ورأيت سماء الصحراء المقمرة أو لياليها التي تسطع فيها النجوم . إنني أذكر ليلة مقمرة في وسط الصحراء كدت أقرأ فيها على ضوء القمر صفحة من كتاب . ولقد تركت هذه الرحلة برغم مصاعبها أكبر الأثر في نفس أبي الطيب ، حتى أنه بعد مضي أكثر من سنتين تقرأ له في قصيدة وضعها سنة ٣٥٢ هـ أبياتا تشعرنا بحنينه الذي ملأ قلبه وقت السفر إذ قال يذكر مسيره من مصر ويرثي أبا شجاع فاتكا :

حثام نحن نساري النجم في الظلم وما سراه على ساق ولا قدم
ولا يحس بأجفان نحس بها فقد الرقاد غريب بات لم ينم

وهو مع ما أونيه من نصر لتغلبه على الصعاب ، يذكر حر الشمس في وسط القيظ ، طول أيام السفر في الفيافي فيقول :

تسود الشمس منا بيض أوجهنا ولا تسود بيض العذر واللمم

ثم تجده لا ينسى مدح المطايا التي لولاها لما خرج من مصر بعد ما لقيه من الظلم والعنت فيها :

لا أبغض العيس لكني وقيت بها قلبي من الحزن أو جسمي من السقم

فكأنه يسير في تفكيره ليستعيد ما مر به من ألم وأحزانه وهو الذي سبق له أن قال وهو بالفسطاط :

أقمت بأرض مصر فلا ورائي تحب بي الركاب ولا أمامي
قليل عائدي سقم فؤادي كثير حاسدي صعب مرامي
عليل الجسم ممتنع القيام شديد السكر من غير المدام

فلا غرابة إذن أن مطلع جبال حسمى قد غمر قلبه ، وأن رؤيته لتلك الشعاب قد نفخت فيه روحا جديدة ، بعد ما لقي من نصب ومتاعب في رحلته ؛ وبعد ما تحمل في مصر من ألم نفساني ومرض أضنى جسمه

إن مناظر الجزيرة وجبال حسمى قد ملأت نفسه حبورا وجعلت منه إنسانا آخر . . نرى ذلك في شعره ونحس معه أحاسيس الذي خرج من سجن وانطلق للفضاء .. ولا ننس أن بين حسمى ووادي القرى ليلتان ، وبين الأخير والمدينة ست ليال (١)

ولا يمر هذا الشعور دون أن يعتريه انفعال آخر هو إحساسه بالنصر والغلبة على كافور وكيده ، وأنه رفض أن يقبل الذل على يديه ، فهاهوذا قد ترك دنيا الظلم والظلام ، وذلك الوسط الذي قال عنه « كأن الحر بينهم يتيم » وقال فيه عن كافور « غراب حوله رخم وبوم » وهناك انطلقت شاعريته في الكوفة فقال في مواجهة الأحداث وليشهد الدنيا على انتصاره

لتعلم مصر ومن بالعراق ومن بالعواصم أني الفتى
وأني وفيت وأني أبيت وأني عتى على من عتا
وما كل من قال قولا وفى وما كل من سيم خسفا أبى

وهو شعر يبلغ فيه النهاية ويترنم به من كان مثلي قد عانى الشدة وألم الاضطهاد ووقف أمام الظلم . رحم الله أبا الطيب وطيب ثراه ! اني أعد هذه القصيدة قطعة موسيقية من أروع ما أنشد هذا الشاعر العظيم . ولقد كنت ضحية للظلم يوما ، وتنكر لي أقرب الناس إلي ، وشعرت بشعور أبي الطيب ، وأقمت مدة وأنا أترنم بهذه الأبيات، فأشعر بنفسي وقد قويت ، وأستمد منها شجاعة وصبرا..وهكذا يحيا شعر أبي الطيب في نفوس من يفقه أمر المتنبي ومن عاش عيشته ومن انكوى بنوع من الظلم يشبه ما أصاب شاعر العرب العظيم

وأقسم بالله إني لأتمين الفرص لرؤية حسمى العالية الأطراف

(١) ياقوت جزء ٣ صفحة ٢٧٦

والتى قيل أنلا مثيل لها فى الدنيا ، هذه الجبال الممتدة على خليج العقبة الملساء الجوانب ، والتى إذا أراد الناظر أن يمتع نفسه بالنظر إليها وإلى قنة منها ، رفع بأبصاره إلى السماء

إنها أوحت لأبى الطيب بالكثير من شعره عن نفسه ، وأعذب الشعر ما تحدث به الشاعر عن أحاسيسه ، والمتنبى إعصار هائل من أين أتيت إليه ، فهو عظيم فى حجمه وجبروته ، ولكن هذا الإعصار وسط الأدب العربى ، بلغ القمة وجاوز حدود العظمة حينما سجل بشعره آلامه وأحزانه وفرحه وغبطته ويوم انتصاره

وطابت حسمى لأبى الطيب فنزلها وأقام بها شهراً . أليست مواطن الأفذاذ من قبائل العرب ، التى لم تعرف الخنوع ولا الخضوع، والتى على رغم قربها لملك كافور لم تسمح لنفسها أن تقبل ظلمه وجبروته وطغيانه

ما بين مدين وتبوك وامتدت إلى أذرح أو أذرع ، واحتلت عاملة جبلها المعروف باسمها ، من بحيرة طبرية إلى البحر

وبقيت جبال حسمى بين فزارة وجذام . ولما نزلها أبو الطيب وارتاحت نفسه إليها ، لم تتركه دسائس كافور ، وهو الذى عمل حسابا له فتحاشى أقرب الطرق إلى حسمى خوفا من كمين قد يرصده له فى طريق نزوله من رأس النقب إلى عقبة إيليا ، واضطر أن يسلك طريق الشام أولا ثم يتكفأ من تربان إلى غرندل ثم جنوبا إلى منازل جبال حسمى

أقول إن صاحب مصر أبى إلا أن ينغص عيش أبى الطيب وأن يتبعه إلى الأطراف البعيدة ، فكتب إلى رؤساء العرب ووعدهم وواعدهم، وبعد مضى شهر ظهر لأبى الطيب فسادنية عبيده وجاءت الحادثة معوردان بن ربيعة من قبيلة طيء ، وهو الذى سمع

جاء فى كتاب الهمدانى(٢) أن إرم وحسمى والبياض هى مساكن من تشاءم من العرب الأقحاح ، وقد سكنت لخم المنازل بين الرملة ومصر (الجفار) وطرق جبال الشراة ، أما جذام فكانت تسكن

بأن لأبى الطيب سيفا مذهبا ، فأخذ يلح فى أن يريه إياه ، وأبو الطيب يحاول التخلص منه ، لأنه سيف يعتز به ويحرص عليه ، فجعل الطائى يحتال على العبيد الذين فى خدمة أبى الطيب ويحرضهم عليه طمعا فى الحصول على السيف .

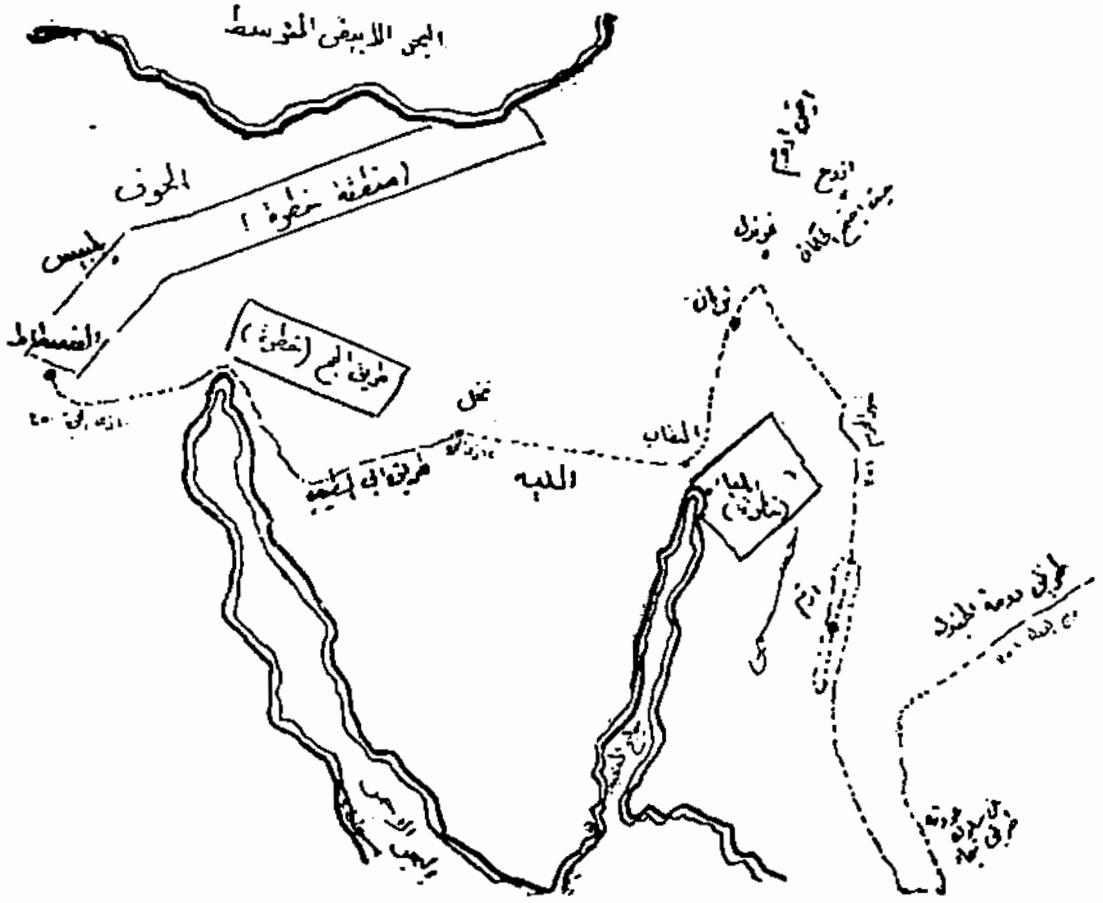

(٢) الهمدانى صفحة ١٢٩

وهنا اكتشف أبو الطيب أن أبا المسك صاحب مصر قد كاتب العرب الذين حوله ، ولم يبق هناك مفر من الرحيل ، فأرسل من يثق به إلى بني فزارة وبني مازن ، وإلى شيخ من ولد هرم بن قطبة . فلما أتاه الخبر بقبوله النزول لديه شد ليلا على الإبل وجنب الخيل ، وسار تحت كنف الليل على طريقته لما غادر الفسطاط والقوم لا يعلمون برحيله ، وكان يقصد تضليلهم إذا حاولوا القبض عليه ، كما ضلل من قبل جماعة كافور . ويظهر من تصرفاته أنه كان على علم وإلمام بطرق البادية ، ومسالك البلاد وأسرارها ، بدليل أنه اتخذ السير فى طريق البياض وسار فيه ليلا حتى رأس الصوان، وهذا الدرب خطير يحتاج فيه الراحل إلى الحفارة لتعذر الأمان فيه وهو الطريق الذى يسلكه من يرحل من تيماء ووجهته الكوفة فيمر يسرة فيما يلى البياض ثم يخترق ديار ذبيان ، فمنازل كلب فى صحراء السماوة ثم الدهناء ، فإذا مر منها واجهه نخل الفرات . وما وصل أبو الطيب إلى رأس الصوان حتى انكفأ عائداً إلى الشمال مرة أخرى ، محترسا من أن يقع على كمين إذا سار فى الطريق الأول

وفى صفحة ٤٩٥ من الديوان « وسار أبو الطيب حتى نظر آثار الخيل ولم يجد مع فليتة خبرا من العرب التى طلبها فقال له اخرق أو احرف بنا على بركة الله إلى دومة الجندل؛ وذلك لأنه أشفق أن تكون عليه عيون بحمص قد علمت أنه يريد البياض ، فصار حتى انحدر إلى الكفاف فورد البويرة بعد ثلاث ليال

ذكر ياقوت أن البويرة موضع بين وادى القرى وبين بسيطة الواقعة فى طريق الكوفة

ومن ذلك يتضح أن أبا الطيب أقر فى نفسه طريق السفر فجعل : أولا وجهته دومة الجندل

ثانيا تحاشى العودة إلى جبال حسمى

فكأن انحداره للبياض كان تمويها لأنه اتخذ كعادته طريقا آخر هو طريق الكفاف ثم البويرة

والخرائط لا تسعف هنا لأن المناطق الواقعة فى أراضى المملكة السعودية لم تمسح بعد مساحة تفصيلية، فأبدأ بالكلام على هذه المواقع جاعلا أول الكلام على دومة الجندل ثم بقية الأماكن إلى الكوفة

إذا فتحت الخرائط وجدت منطقة الجوف تتوسط الصحراء وهى التى قال عنها صاحب جزيرة العرب، كانت تسمى قديما دومة الجندل[٣] والجوف هى البلدة الرئيسية تقع وسط منطقة زراعية كبيرة على رأس وادى السرحان والواحة واقعة فى منخفض نحو ٥٠٠ قدم تحت سطح الصحراء المحيطة بها[٤]

وفى هذا المنخفض واحات صغيرة مثل سكاكة وقارة والطوير وجاوة ، وسكاكة هى أكبرها وتكثر فيها مزارع النخيل

ولأهمية موقعها طلب مندوب المملكة الأردنية فى مؤتمر الكويت أن تكون حدود نجد كما كانت عام ١٩١٩ أى طلب إخلاء الجوف وسكاكة ووادى السرحان من قوات المملكة السعودية [٥] فطلب مندوب نجد استفتاء أهالى الجوف ففشل المؤتمر [٦]

وقد برز اسم دومة الجندل فى تاريخ الإمام على كرم الله وجهه ومعاوية، فقد ذكر المسعودى[٧] «وفى سنة ٣٨ كان التقاء الحكمين بدومة الجندل، وقيل بغيرها على ما قدمنا وصف التنازع فى ذلك» وذكر اسم كتاب له فيه تفاصيل النزاع ضاع ضمن ما ضاع من مؤلفاته

ويقول الأستاذ الخضرى فى تاريخ الأمم الإسلامية[٨]

« فتوافوا (أى الحكمين ومن معهما) بدومة الجندل بأذرح فيكون قد أقر بأن الاجتماع فى دومة الجندل التى هى بأرض الشراة. وقد نقل هذا عن ابن خلدون[٩] الذى قال : وبعث معاوية عمرو بن العاص فى أربعمائة من أهل الشام والتقوا بأذرح من دومة الجندل » صفحة ٤٤١

(٣) جزيرة العرب تأليف حافظ وهبة صفحة ٦٧

(٤) وموقع الجوف مهم جدا لأنه يقع على الطريق المباشر ما بين سوريا ووسط بلاد العرب وهى منفصلة أو يقع فى المنتصف ، ما بين الفرات وطريق الحجاز الحديدى بين جبل شمر وجبل الدروز وعلى بعد ٣٠٠ ميل من كل هذه المواقع ، وهى الواحة الوحيدة ما بين العقبة وبغداد أو العقبة والبصرة

(٥) صفحة ٢٠٧ جزيرة العرب

(٦) صفحة ٢٤٨ جزيرة العرب

(٧) جزء ٢ صفحة ٢٧٥

(٨) جزء صفحة ٤٣٢

(٩) ج ٢ صفحات ٢٥ ، ٢٨ ، ٣٨ ، ١٥٦ ، ٢٠٠ ، ٢١١ ، ٢١٦ ، ٢٨٦ ، ٤٤٠ ، ٤٤١

« وكتب الكتاب لثلاثة عشرة خلت من صفر سنة ٣٧ واتفقوا على أن يوافى على موضع الحكمين بدومة الجندل وبأذرع فى شهر رمضان » ٤٤٠

وجاء ذكر دومة الجندل فى صفحة ٢١٦ «خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى جمادى الأولى من السنة الخامسة لستة أشهر من فتح بنى قريظة ، وذلك إثر رجوعه من دومة الجندل فسلك على طريق الشام أولا ثم أخذ ذات اليسار إلى صخيرات اليمام »

ولذلك اختلف الناس فى تحقيق موضع اجتماع الحكمين هل هو فى دومة الجندل بالصحراء أم فى دومة الجندل بأراضى المملكة الأردنية ؟ أى فى بلدة أذرح الواقعة فى نطاق دومة الجندل والتى كان يطلق عليها الصخرية

إننى أميل إلى الرأى الأخير وإن كنت أدعو أحد المهتمين بتحقيق الدراسات الإسلامية أن يضع بحثا عنها

وقد جاء فى كتاب تاريخ الإسلام السياسى مايأتى « اجتمع عمرو بن العاص وأبو موسى الأشعرى بدومة الجندل وهى بضم الدال وفتحه وتبعد عن دمشق بست مراحل وتقع على الطريق بين دمشق إلى المدينة»(١٠)

وكان عقد التحكيم مدته من رمضان إلى رمضان وكتب فى يوم الأربعاء ١٣ صفر سنة ٣٧ وأخذ الحكمان من على ومعاوية ومن الجند المواثيق واتفقا على تأجيل القضاء إلى رمضان وإن أحبا أن يؤخرا ذلك أخراه على أن يوافى على ومعاوية موضع الحكمين بدومة الجندل فى رمضان فإن لم يجتمعا لذلك اجتمعا فى بلدة أذرح المبينة على الخريطة شمال غرندل وتربان

وبعث على للميعاد بأربعمائة رجل ولم يحضر على، وبعث معاوية بأربعمائة رجل ثم جاء معاوية واجتمعوا فى أذرح والتقى الحكمان

كل هذا يقتضى بأن الاختيار وقع أولا على دومة الجندل التى بالجوف لتوسطها بين الطرفين ولكى يحضر المتخاصمان أمام الحكمين ؛ ولكن معاوية الحريص على ملكه وحياته اختار الشق الثانى وجعل بلدة أذرع المكان المختار وقد يكون احتج بأنها قائمة بأرض دومة الجندل لأن هذه المنطقة كانت تسمى بأرض أدوم أو دومة من القدم ... فقد جاء فى قاموس الكتاب المقدس ص ٤٥١ أن دومة التى بها أذرح معرفة عن أدوم، وأنها البلاد التى يسكنها نسل دومة وهو أدوم بن إسماعيل أو سادس أولاده (تك ٢٥ : ١٤) وأنهم سكنوا فى صحراء سوريا على بعد ١٥٠ أو ٢٠٠ ميل من دمشق حيث توجد قطعة أرض تعرف باسم دومة الحجرية أو دومة السورية

وفى كتاب الإمامة والسياسة ج ١ صفحة ١٣٦ مايشير إلى كتاب بين على ومعاوية اتفقا فيه على أن يرجع أهل العراق إلى العراق وأهل الشام إلى الشام ويكون الاجتماع إلى دومة الجندل (وأظن أنهما يقصدان دومة الجندل بالجوف) فإن رضيا أن يجتمعا بغيرها فلهما ذلك ... ثم ذكر فى صفحة ١٣٨ أن أباموسى وعمراً لما اجتمعا بدومة الجندل كان عقد التحكيم هدنة من رمضان إلى رمضان

وإذا رجعنا إلى اسم أدوم وجدنا أن معناه فى قاموس الكتاب المقدس أحمر وهو لقب عيسو بن إسحق أخذ بلون العدس يوم باع بكوريته إلى أخيه يعقوب وأخذ الأرض الواقعة جنوبى « حبرون » مدينة الخليل إلى جنوب البحر الميت ثم تخوم أرض موآب ثم اتسعت البقعة فشملت الأراضى الواقعة بين برية « سين » وغربيها إلى بلاد العرب الواقعة شرقيها أى شملت منطقة أذرح وما حولها . التى اشتهرت بجودة هوائها ، وخصب أراضيها ومناعة حصونها. أما تسميتها بأدوم فأخذا من عيسو الملقب بأدوم (تك ٣٦ : ٤٣) والمظنون أن نسله استوطن هناك فأصبح هذا القسم من جنوبى البحر الميت يشمل كل تخوم كنعان الجنوبية من البحر الميت إلى الخليج الشرقى للبحر الأحمر ومن ضمنها جبل سعير وكانت سالع عاصمة القسم الجنوبى وفيها استوطن تيمان بن عيسو (تك ٣٦ : ١١) فتسمى الجزء الجنوبى تيماء باسمه وكان للأدوميين ملوك يحكمون باسمهم

ولما جاء حكم الروم أنشأوا فى تخوم العقبة باباً كبيرا ووضعوا عليه شحنة لجبى الضرائب على القوافل القادمة من الجنوب ... وفى الاصطخرى وابن حوقل (١١) تمتد جبال أدوم من الشراة إلى أيلة أى العقبة كما جاء فى كتاب فلسطين تحت حكم المسلمين لمؤلفه جوى لوسترانج أن أدوم فى مادة الشراة

(١٠) صفحة ٢٨٦

(١١) صفحة ٢٨

أما تحقيق أدوم أو دومة الجندل لدى العرب فقد جاء فى صفحة ١٠٦ جزء ٤ من معجم ياقوت كما يأتى : بضم أوله أو فتحه

ابن دريد : أنكر الفتح وعده من أغلاط المحدثين

حديث الواقدى : جاء فيه دوما الجندل

ابن الفقيه : عدها من أعمال المدينة ... وقال سميت بدوم بن إسماعيل بن إبراهيم

الزجاجى : دومان بن إسماعيل وقيل دوما

ابن الكلبى : دوماء بن إسماعيل، ولما كثر ولد اسماعيل بتهامة خرج دوماء حتى نزل دومة وبنى به حصنا فقيل دوماء ونسب الحصن إليه وهى على سبع مراحل من دمشق بينها وبين مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ... وقال أبو سعيد : دومة الجندل فى غائط فى الأرض خمسة فراسخ وفيها عين يسقى ما به من النخل والزرع وحصنها مارد ، وسميت دومة الجندل لأن حصنها مبنى بالجندل » ولا يبعد أن وصفه ينطبق على دومة الجندل بالجوف والحصن على ما بناه الأكيدر وهو من فتح خالد بن الوليد . ثم يؤكد أبو عبيد الكوفى أن دومة الجندل قرب جبلى طى ويقصد بذلك واحة الجوف لأنه يذكر بلدة دومة وسكاكه وذو القارة[١٢] أما دومة ففيها سور يتحصن به وفى داخل السور حصن منيع يقال له مارد وهو حصن أكيدر

ونعود إلى أرض أدوم أو دومة الجندل الصخرية فنقول إن هذه البقعة كانت عامرة فى العصور السابقة وفى عهد الروم أنشئت بها كما قلنا أسقفية فى « غرندل» تحريف «أرندل» التى بقيت على الطريق الرومانى من العقبة إلى بصرى ، وكان عر بأرض الشوبك وعليه حصن الكرك المشهور فى الحروب الصليبية، وكان عامرة فى عهودها الإسلامية بدليل سكنى الخلائف من قريش وبنى هاشم ، وأن الدعوة العباسية قامت من بلدة الحميمة حين مات بها إبراهيم الإمام

وبعد هذا التحقيق والبحث كنت أقلب الجزء الأول من العقد الفريد تحقيق العلامة الدكتور أحمد أمين فوقع نظرى فى الصفحة ٢٦٤ سطر ١٣

« وأوصل أبو دلامة إلى العباس بن المنصور رقعة فيها هذه الأبيات

قف بالديار وأى الدهر لم تقف ... على مناظر بين الظهر والنجف

فإذا الحاشية (٤) تقول

(النجف بالتحريك موضع بظهر الكوفة ، وهو دومة الجندل بعينها، وبالقرب منها قبر أمير المؤمنين على بن أبى طالب) ولاشك فى أن واضع الحاشية كغيره من الأدباء أغفل تحقيق الأماكن الجغرافية لعدم أهميتها، والحقيقة أن بالكوفة مكانا يدعى « دومة » والنجف محلة منها ويقال إنها سميت بذلك لأن عمر بن الخطاب لما أجلى الأكيدر صاحب دومة الجندل المشهورة فى الجوف قدم الحيرة ثم بنى بها منزلا سماه دومة على اسم حصنه الذى نزع منه (راجع كتاب تاريخ الكوفة تأليف المؤرخ السيد حسين بن السيد أحمد البراق طبع النجف صفحة ١٤٨ سطر ٢

ولا يصح أن يفهم القارئ خطأ بأن موضع دومة الجندل التى مر ذكرها واختلاف الرواة بشأن الحكمين كان موضعا بالقرب بالنجف حيث يرقد الإمام على رضى الله عنه وبين النجف ودومة الجندل بالجوف مئات الأميال وبينها وبين أرض أدوم بالشراة مئات أخرى

أحمد رمزى

المدير العام لمصلحة الاقتصاد الدولى

(١٢) أسبحت القارة فى كتاب الشيخ حافظ وهبة

تاريخ الأدب العربى

للأستاذ أحمد حسن الزيات

يؤرخ الأدب العربى من عصر الجاهلية إلى هذا العصر بأسلوب قوى ، واستيعاب موجز ، وتحليل مفصل ، واختيار موفق ومقارنة بين الأدب العربى والآداب الأخرى

طبع خمس مرات فى ٥٢٠ صفحة
وثمنه أربعون قرشاً عدا أجرة البريد